

ذكرياتي مع الدكتور شوقي ضيف

د. أحمد عبد الستار الجوارى

عرفت شوقي ضيف أول ما عرفته مؤلفاً لكتاب معجب قيم، طار صيته في أوساط الأدباء، وطلاب الأدب العربى المولعين به وبتاريخه، ذلك هو كتاب «الفن ومذاهبه في الشعر العربى». وتمثلته شاباً نشيطاً سريع الحركة، يفيض حيوية، ويتدفق مرحاً، ثم كتب الله لى أن أجلس بين يديه طالباً في كلية الآداب، فإذا بى تجاه رجل عليه من وقار العلماء، سياء واضحة، وفيه من شغف بالعلم والتعليم ذخيرة يكتنزها في ذهن نشط وفكر جوال، لم يكن فيه من طباع من كانوا في مثل سنه، وفي مثل موقعه، تلك الخفة وذاك الطيش، ولكن فيه نشاط الشباب، وقدرته على العمل الدائب في صبر وفي جلد، وفيه جدّ وفيه استقامة وحرص، حتى إنه لم يكن يهدر من وقت الدرس شيئاً في غير جواب عن سؤال، أو شرح لمسألة، يطلب إليه شرحها.

ومرت أيام الدراسة، وكلما تعاقب مدار الزمن، ازدادت بشوقى حباً وإعجاباً، ولكنه إعجاب مشوب بشيء من المهابة التى قد تصل إلى الرهبة، لأنه كان حريصاً على ألا يؤثر من طلبته أحداً على أحد، ولا يخص بعضهم بما يزيد من حقه عليه كأستاذ مرشد موجه.

ثم جمعنا أبوة ذلك الطور الشامخ، والعلم الفرد أحمد أمين، فصرنا نلتقى أخوين: كبيراً يحنو على أخ له صغير، يفتح له قلبه ويفسح له فى عواطفه ومشاعره، ويبذل له من جهده العلمى القيم، ما أعانه على المضى فى بلوغ ما أراد من درجات علمية.

كل ذلك الود، وكل تلك الأخوة الصادقة، كان يزينها جدّ وحرص، ووقوف عند جانب الحق والصدق بلا تساهل ولا مجاملة، وكانت مقالة الصدق على لسانه حبيبة محببة، لا يضيق بها الصدر، ولا تنكرها المشاعر.

وظل شوقي ضيف أخاً يسراً لما يسر به أخوه، يتفقدّه ويتحسس مكانه من نفسه، وامتد ذلك الود، واتسع مداه حتى بلغ الأسرة الكريمة النجيبة، وزاد فيها أن أم عاصم كانت أختاً ودودة، صديقة الأخوة عميقة المودة، وكان والدها المربي الفاضل والمعلم الجليل أباً لهذه الأسرة، يفيض

عليها من كريم خلقه وفيض محبته ما يؤنس، وما يلا النفس راحة وأمنًا وطمأنينة، رحمه الله وأجزل له واسع المثوبة والرحمة.

إن في الدكتور شوقي ضيف من مزايا الجَدِّ والصدق والحرص على إتقان العمل ما لا يعرفه إلا الذين عاشروه وخبروه عن قرب، وتغلغلوا في صميم نفسه وفي سويداء قلبه مثلما كان من كاتب هذه السطور، ومثل من ذلك أن كان واحدًا من أعضاء لجنة مناقشتي في الدكتوراه، لقد حرص وأصرَّ على أن يتحفني بنتائج دراسته للرسالة، جذاذات مكتوبة بخطه الجميل المنظم، وأسلوبه الرشيق، وأفكاره الهادية المرشدة السديدة.

ويشهد الله أن ما كسبت من الجلوس في الدرس بين يديه لا يقل، بل قد يفوق ما أخذته عنه أخذًا مباشرًا في جلسات خاصة، كان يؤثرني فيها بكل طيب في المادة والمعنى، وما يزال ولن يزال بإذن الله يواليني من التوجيه الرفيق، والرأى السديد.

إن شوقي ضيف ذخيرة من علم وخلق وودّ وصدق، ودأب على العلم آتاه الله قدرة عليه قل نظيرها في من نعرف في جيلنا هذا، وهو جدير بكل تكريم وتقدير وعرفان بالجميل:

أطال الله بقاءه وأقر عينيه بعاصم ورنده، وأضفى على أسرته الكريمة وقرينته الفضلى أم عاصم كل خير وعافية وراحة بال.

أما شوقي ضيف العالم الأديب المحقق، فإن ما أخرجه للدارسين والمدرسين وعشاق الأدب العربي، واللغة العربية، هو الذي يدل على مكانه الرفيع بين من كتب وألف، وحقق ونشر، وحسبه أنه في هذا العصر ثانی اثنين وضعا في الفكر العربي، والأدب العربي ما يصح أن يسمى «موسوعات»: أولهما أستاذنا والدنا، أحمد أمين تغمدته الله برحمته ورضوانه، فإنه قد جمع فأوعى في «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» و«ظهر الإسلام»، وعرض الفكر العربي والإسلامي ذلك العرض الذي هو أشبه مما يعرف بالسهل الممتنع، لأمو دقيقة عميقة تنوء بها العنبة أولو القوة.

والثاني هو الأستاذ الدكتور شوقي ضيف، الذي وضع للأدب العربي وتاريخه موسوعته الجهييرة في تاريخ الأدب العربي بعصوره المتتابعة، بدءًا بالعصر الجاهلي وانتهاء بالعصر الحديث، عمل لم ينهض به من قبله أحد، في مثل هذا الاستيعاب والعرض المبسوط القريب المنال.

أما آثاره في النحو وإصلاحه فهي مذكورة مشهورة، ولقد بدأها فيها أعلم بنشر كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبي، والمقدمة التي افتتح بها نصه المحقق على أحسن وجه درس قيم، لذلك المذهب الذي مازال دارسو النحو والمحاولون تيسيره، يتزودون منه بزيادة قيم.

وكتبه في المقاهب النحوية، وفي تجديد النحو تشهد له بالغيرة على لساننا العربي، وباجتهاده في إقالة عثرات النحاة، وتسديد مسار هذا العلم الجليل.

وبعد فإن حديثي عن شوقي ضيف، يزيدني ولوعاً بسيرته الكريمة، ويلدّ لي أن أستعيد ما بيننا من مودة ومحبة، وما أحمله له من إكبار وتقدير وإجلال، وما أشعر به من فخر واعتزاز، بتلمذتي له وبالأخوة الخالصة الصادقة النزهة التي تجمع بينه وبين كل من سعد به مثلاً سعدت. رعاه الله، وأطال بقاءه، حتى يظل علماً يهتدى به، ويستضاء بعلمه وخلقه وكريم سجاياه.

أ. د. أحمد عبدالستار الجوارى

أستاذ في قسم اللغة العربية

كلية الآداب - جامعة بغداد